الرملة ورباطاتها السبعة

فى القرن الرابع الهجرى قبيل الحروب الصليبية

نظام دفاع دائرى

للدكتور محمد عبد الهادى شعيرة
أستاذ التاريخ الإسلامى (سابقاً)
كلية الآداب — جامعة عين شمس

من الطبيعى أن نهتم بالرملة وهى مفتاح القدس من ناحية ومفتاح المدن الساحلية المحيطة بها على شكل دائرى . ذلك أن الرملة جزء هام من فلسطين التى شغلت تفكيرنا وجهودنا منذ أكثر من عشرين سنة .

والرملة هى العاصمة الحربية الحقيقية لجند فلسطين كما كان يسمى فى عهد عمر أو لإقليم فلسطين ، كما نسميه نحن العرب اليوم . أما القدس فهى العاصمة الروحية ، ومسرى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومقر المسجد الأقصى ، والقبلة الإسلامية الأولى ، والحرم المقدس لدى عامة المسلمين .

أنشئت الرملة فى عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) لتقوم بدور رئيسى فى حماية الثغور والدفاع عن البلاد الساحلية . ويجب أن نذكر دائماً أن هذه المدينة كانت مصراً من أهم الأمصار الإسلامية ، وكان إنشاؤها على يد دولة واثقة من نفسها ، قادرة على تحقيق الأمن الداخلى وتحقيق الدفاع الفعال عن الساحل ، ولهذا اختار القواد الذين مصروها موقعها بعيداً عن المرتفعات القريبة منها عند « عمواس » وحرص القواد على أن يجعلوا من مكانها مكاناً يمكن أن تحتشد فيه القوة الاقتصادية دون عائق من التضاريس ، وأن تحتشد فيه الجيوش لتدافع دفاعاً فعالا عن الساحل القريب .

وقد كانت الرملة ورباطات الساحل الواقعة فى غربها وحدة متكاملة من وحدات الدفاع واقعة فى منطقة السهول الساحلية . فكانت الرملة قاعدة خلفية مركزية

بالنسبة لمدن الساحل السبع الواقعة أمامها ، وكان إنشاؤها عبارة عن تعميق لخطوط الدفاع الساحلى ، مع تركيز هذه الخطوط عند نقطة مركزية خلفية ، أكفأ من القدس على الدفاع والهجوم .

أما إسم الرملة فالراجح أنه مشتق من ظاهرة مناخية ، هى ظاهرة تحول التربة إلى رمل ناعم فى الصيف ، بسبب جفاف الجو بحيث لا يوجد فى هذا الفصل ماء يجرى ولا خضرة مؤنسة إلا فى قمم النخيل وشجر التين ، ولا يوجد فيها فى الصيف إلا ماء الآبار البعيدة الغور وهو ماء يميل إلى الملوحة غير أنه شروب ، ولهذا يدخر الناس ماء الشتاء فى صهاريج لهم لشرابهم فى الصيف . ومثل هذه التربة تعتبر أصلح الأراضى لإنبات التين ، ولهذا اشتهرت الرملة بهذه الثمار حتى قرر القدماء أنه لم يكن يوجد أفضل منه تين فى ديار الإسلام وكان يسمى لسبب ما بتين دمشق . كما يسمى تين العامرية بتين سيدى جابر ، أما فى الشتاء فإن المنظر يتغير عندما ينزل المطر فيحول الرمل الناعم إلى بحيرة من الوحل ذات لون رملى ، وتنبت عندئذ الزروع وخاصة القمح ، وقد اشتهر قمح هذه المنطقة واشتهر كذلك خبزها بالبياض وجودة الصنعة ، وكان محصول القمح يكفى كل المنطقة ، وكان يصدر إلى مصر .

وإلى جانب هذه الثروة الزراعية توفر للرملة ثراء تجارى صناعى ، فقد كان فيها طبقة من تجار الأقمشة ينزلون فى حى خاص بهم حول الجامع الكبير ، وكان من عاداتهم فى القرن الرابع الهجرى أن يركبوا حميراً من مصر ، وأن يتأنقوا فى اختيارها وفى اتخاذ السروج لها ضناً بالخيل التى كانت لا تستعمل إلا للأغراض الحربية .

فى هذه المنطقة الرملية الخصبة قامت مدينة كبيرة ذات جامع أفخم من جامع دمشق الأموى مع أن مسجد دمشق كان فخماً وكان ثانى مساجد الإسلام اتساعاً وجمالا ، وبنيت لجامع الرملة مأذنة جميلة وكان محرابه أكبر محراب معروف ، ومنبره أجمل منبر فى ديار الإسلام كلها على الإطلاق فى رأى المقدسى الجغرافى العربى . أما عمائر المدينة فكانت مبنية بالحجر والآجر على السواء ، وامتد العمران امتداداً كبيراً ، فكان للرملة إثنى عشر باباً بعدد الطرق التى تخرج من المدينة نحو الداخل ونحو الثغور البحرية على الساحل ، ومنها درب يافا المار بمدينة « يازور » ودرب عسقلان ، وهذه الدروب الإثنى عشر هى التى تصور نظام الدفاع المركزى

الدائرى . وإنما سميت الطرق دروباً لإبراز معنى الجهاد ، فكان شأن هذه الدروب المؤدية إلى ثغور البحر شأن الدروب التى كان يجوزها الغزاة المجاهدون المرابطون للوصول إلى أرض العدو عبر جبال الطوروس . ومن الطبيعى أن يكون العمران على قدر الطرق ، ولهذا يقول المقدسى : إن مبانى المدينة كانت فخمة ، وشوارعها واسعة ، ومساكنها فسيحة ، وحماماتها طيبة ، وفنادقها جميلة ، وتجارتها واسعة رائجة . ونقول نحن : إن المدينة كانت تمثل قوة الدولة فى عهد بنى أمية والعهود التالية بها وجمالا وسحراً ورغد عيش لأنها كانت العاصمة لإقليم فلسطين . وكان للمدينة طابع خاص سجله المقدسى فأشاد بكرم الناس وسماحتهم وطيب عيشهم . ولم يجد فيهم عيباً إلا عيباً واحداً هو قلة حظهم من العلم فى القرن الرابع الهجرى . وكان عدد السكان كبيراً من غير شك بسبب ما ذكرنا من ثراء المدينة ورواج تجارتها وصناعتها ، وبسبب آخر هو اندفاع الهجرة الحربية نحو المراكز الإستراتيجية على شكل متطوعين وعلى شكل رباطات رسمية . وقد أدى عامل الجهاد إلى أن أكسب جامع الرملة قداسة كقداسة المساجد الأولى فى الأمصار الإسلامية الأولى كجوامع الكوفة ، والبصرة والفسطاط ودمشق ، بل يقرر المقدسى أن الرملة كانت فى أيامه أكثر عمراناً من بغداد نفسها .

كانت الرملة ورباطاتها الساحلية السبعة جزءاً من نظام الدفاع الساحلى الذى أقامه عمر بن الخطاب للدفاع عن الشام (بمدلول الإسم القديم) من غزة إلى أنطاكية ، وقد استمر هذا النظام قائماً واستمرت العناية به قائمة إلى القرن الرابع الهجرى ، وتلك حقيقة يجب الانتباه إلى أهميتها ، لأنها تدل على أن هذه السواحل ظلت قائمة قياماً فعالا بواجب الدفاع إلى أن اغتصبها الفرنج الصليبيون فى نهاية القرن الخامس الهجرى .

ويقرر المقدسى أن الرملة كانت عاصمة فلسطين ، وأنها كانت نقطة خلفية لسبعة رباطات ساحلية ، وأن العرف جرى بفداء أسرى المسلمين فيها ، وأن نظام الدفاع كان يقوم على أساس استعمال شارات النار فوق الأبراج لحشد قوات المنطقة عند قيام أى خطر .

* * *

ولكى نشرح نظام الدفاع يجب أن نتخيل المنطقة تخيلا كاريكاتورياً ، ولنتصور

على هذا الأساس أن الرملة كانت مركز قطاع من دائرة ، وطول القطاع الدائرى نحو ٥٠ كيلومتراً ، وطول القطر بين المركز وخط القطاع نحواً من ٢٠ إلى ٣٠ كيلومتراً ، والمطلوب هو أن تدافع قاعدة الرملة المركزية عن القوس الساحلي (أنظر الخريطة التوضيحية المرفقة وهى تمثل نظام الدفاع الدائرى) ، فأقيمت على الساحـــل على أبعاد متساوية تقريباً من الرملة ستة رباطات بين كل رباط والآخر نحو ١٠ كيلومترات ، وقد روعى فى اختيار هذه المسافات أن يكون من الممكن الاتصال بالعين المجردة بين كل رباط ورباط عن طريق النيران . أما الرباطات السبعة فهى : (١) غزة وميماس (٢) عسقلان (٣) أزدود وماحوز أزدود (٤) يبنى وماحوز يبنى (٥) يافا (٦) أرسوف (٧) قيصرية .

لـكننا يجب أن ننبه إلى أن القوس المرسوم حول الرملة يتفرطح ويتباعد فى طرفيه الشمالى والجنوبى عند قيصرية وغزة .

ولنبتدىء من الجنوب نحو الشمال فى ذكر هذه الرباطات من غزة إلى قيصرية .

١ — غزة وميماس :

أما غزة فإنها تقع على مسافة قريبة من الساحل لا على الساحل نفسه ، ويتركز الدفاع عنها فى ميماس الواقعة على ساحلها ، وهى ميناء غزة وقلعتها ، ويظهر أن الوضع قد اختلف اليوم ، وأن غزة اندثرت وحلت محل قلعة ميماس وحملت إسمها معها لأن الذين زاروا غزة تحدثوا أمامى عن كورنيشها وما عليه من فنادق ساحلية وتحدثوا عن شارع طويل متفرع من الـكورنيش إلى أقصى المدينة . وكانت غزة رباطاً بحسب المقدسى ، ومعنى هذا أنها كانت محصنة شأنها شأن ميماس . وكانت الرباط الرئيسى بالنسبة لرباط ميماس .

ولغزة قداسة اكتسبتها من حياة الرباط ومن قداسة الجهاد . ومن ذكريات دينية قديمة : ففيها فيما قيل ولد النبي سليمان وولد الإمام الشافعى ، وفيها دفن هاشم ابن عبد مناف جد رسولنا الـكريم ، وفى أسواقها فى الجاهلية تاجر عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين .

ولا غرابة إذن فى قول المقدسى أن غزة فى أيامه فى القرن الرابع الهجري كانت مدينة كبيرة عامرة هامة الشأن .

أما ميماس فيقول عنها المقدسى أنها كانت مدينة صغيرة محصنة ، ونفهم من هذه العبارة أن ميماس مدينة مسورة ذات أسوار وأبراج وحصن . وكانت تتبع غزة بحسب قول المقدسى والواقع أن وظيفتهما الحربية كانت متكاملة وأن ميماس كانت جبهة غزة . ثم أن طريقاً من طرقات الرملة كان ينتهى عند غزة وميماس .

٢ — عسقلان :

تقع هذه المدينة على نحو ١٢ كم شمالى عزة . وكان لها عمرانها الكبير وزراعاتها المشهورة وذكرياتها الدينية وتحصيناتها .

أما من حيث العمران فإنها كانت جميلة فائقة الحسن ، ذات أسواق فخمة ، وتجارة رائجة أهمها تجارة الحرير . وكان تجار الأقمشة بها كثيرين تتركز منازلهم فى الحى الذى يقع فيه الجامع . وكان هذا المسجد الجامع كبيراً كسيت أرضه بالرخام .

أما الزراعة ، فإن أشهرها الفواكه والجميز . ولا يزال هذا الساحل الشامى مشهوراً بها إلى اليوم ، فهى زراعة مستوطنة أصيلة . ثم إن المدينة اشتهرت أيضاً بشجر الجميز وهو شجر كثير الظل رخيص الثمار ، معروف بفوائده الطبية ، وكان الجميز قديماً شجرة مباركة ترمز إلى الخصب ، والبركة مقترنة بها فى بعض العصور . وكان المعروف فى القرن الرابع الهجرى أن سيدنا إبراهيم احتفر بئراً عند إحدى شجرات الجميز . ولا نزال نرى فى ريفنا البئر عند شجرة جميز . ولكن ذيوع الطلمبات قضى على مثل هذه المناظر وأنسى الناس قداستها ، ثم أن عصير الشجرة الذى يتساقط منها كلما دقت سائل نافع فى العلاج .

ومن الذكريات الدينية التى شاعت فى العصر الفاطمى وجود ضريح للحسين سيد الشهداء . ويكفى آخر الأمر أن تكون أية مدينة رباطاً لكى تكتسب شيئاً من قداسة الأحرام .

وقد كان الرباط يقتضى إقامة التحصينات . وكانت تحصينات عسقلان عظيمة الأهمية من حيث قوة التحصين ومتانة البنيان ومن حيث عدد الحصون . ويقرر

المقدسى أنها كانت تشمل حصوناً كثيرة جيدة التحصين عجيبة البناء . ويكفى ذلك لإبراز الأهمية الإستراتيجية الكبرى المقترنة بهذه المدينة . ولا عيب فى هذه المدينة إلا رداءة الماء ورداءة الميناء .

٣ — أزدود وماحوز أزدود :

على نحو عشرة كيلو مترات شمالى عسقلان تقع أزدود وميناؤها ماحوز أردود ولفظ ماحوز آرامى معناه الميناء ، والشأن فيهما شأن غزة ومماس . وبهذا القياس كانت أزدود قريبة من الساحل على حين كان ماحوزها عند البحر تماماً .

وقد بلغنا عن طريق الصحف اليومية أن إسرائيل الدخيلة على منطقتنا تعيد إنشاء ميناء أزدود (أى ماحوزها) الذى اندثر هو وتحصيناته .

٤ — يبنى وماجوز يبنى :

ونلاحظ نفس الازدواج الذى رأيناه فى غزة وفى أزدود فى حالة يبنى وماحوز يبنى . ويدل نص البلاذرى الخاص بالتحصينات الساحلية كما يدل نص المقدسى العام الشامل لكل الرباطات التابعة لمدينة الرملة على أن التحصين يكون مزدوجاً شاملا للمدينة الداخلية وللمدينة الساحليه وأن يكون الرباط عند الساحل وأن تكون المدينة الداخلية ورءاً مساعداً يحمى الرباط ويدعم صلته بداخل البلاد .

٥ — يافا :

كانت يافا كما يقرر المقدسى ميناء مدينة الرملة . فإذا كانت الرملة العاصمة الحربية والإدارية لجند فلسطين من الشام بالمعنى القديم فإن مدينة يافا تعتبر الميناء الأكبر لإقليم فلسطين . وفعلا يقرر المقدسى حسن الميناء وصلاحيته .

والمدينة كما يصورها المقدسى تبدو فى صورة أنيقة هى الصورة الجميلة لكل المدن العربية القديمة . تبدأ المدينة بسور محيط بها ، وكان سور يافا يحيط بها من جميع الجهات ، وله أبواب منها باب يفتح على البحر مصنوع من الحديد ، لأنه الباب الأهم ، على حين كانت الأبواب الأخرى مقواة بالحديد فقط ، ولم يورد المقدسى شيئاً غير ذلك عن السور ولكن التقاليد المتعارفة فى أصول التحصينات القديمة الإسلامية تقضى

أولا بأن يكون للسور أبراج على أبعاد مقدرة بحيث تحمى الأبراج جدار السور كله بضرب السهام ، وثانياً بأن يكون الاتصال بين الأبراج ممكناً عند قمة السور بطريق عال فى أعلى السور على نحو الطريق العالى الموصل بين بأبى الفتوح والنصر الباقى بالقاهرة إلى اليوم . وثالثاً بأن يوجد خارج السور خندق يصعب على العدو اجتيازه لـكى يتقدم نحو السور .

وفى داخل المدينة فى مكان ما منها — يختلف باختلاف تضاريس المدينـة يوجد الحصن ، ويذكر المقدسى أنه كان للمدينة حصن يشرف عليها بعلوه ، على نحو إشراف قلعة القاهرة عليها أو على نحو إشراف قلعة حلب عليها .

وكذلك اختير لمسجد المدينة مكان مرتفع قرب البحر فـكان المسجد ظاهراً مشرفاً على البحر .

فإذا نظر الناظر إلى المدينة من خارجها رأى السور ذا الأبراج الشامخة ورأى حصن المدينة ومسجدها .

أما الريف المحيط بالمدينة فهو سهل يحمل إسم سهل يافا ، وكان ذا خصب وصفه المقدسى بأنه كان مضرب الأمثال .

وعندها أقامت الدولة الدخيلة مدينة تل أبيب .

٦ — أرسوف :

تقع أرسوف فى شمالى يافا على نحو ١٢ كيلو متر . وكانت رباطاً ذا تحصينات قوية ولم يذكر المقدسى غير ذلك ، غير أننا يجب أن نفترض وجود ما يوجد عادة فى الرباطات من التحصينات والأبراج .

٧ — قيصرية :

تعتبر قيصرية من مدن الساحل الفلسطينى التابع لجند فلسطين ، وهى رباط ومدينة لها سور قوى محصن ، وبجانبها أرباض ذات حيوية محاطة بأسوار خاصة الدفاع عن كل ربض ، ومع ذلك فإن المقدسى لم يذكرها ضمن الرباطات المتصلة بالرملة عاصمة فلسطين حربياً وإدارياً . ونحس أن الأمر يحتاج إلى تعليل .

والتعليل هو أن قيصرية بعيدة بعض الشيء عن القوس الدائرى المحيط بالرملة لأن القوس عندها ينفرج ويتجه نحو الشمال ، وكذلك الأمر بالنسبة لغزة — مماس فى جنوب القوس الساحلى . أما جميع الرباطات الأخرى الخمسة التابعة للدولة فإنها تقع على مسافات متساوية منها .

ثم إن المقدسى لايقصد إلى ذكر جميع رباطات الساحل ، وإنما يقصد فقط شيئاً دقيقاً ، وهو مركز الرملة والرباطات الخمسة التى تقع على مسافات متساوية منها على أساس أن الرملة ورباطاتها القريبة وحدة استراتيجية دفاعية قائمة بذاتها . وإذن فنحن أمام مجموعة معينة من الرباطات ، هى : عسقلان ، وأزدود ، ويبنى ، ويافا ، وأرسوف . وكلها تحيط بالرملة باعتبارها المركز الذى يقع على مسافة واحدة تقريباً من هذه الرباطات الخمسة .

كيفية الاتصال بين الرباطات والقاعدة الخلفية :

يقضى فن الحرب بضرورة الاتصال السريع بين نقط الدفاع ، وقد استطاع العرب منذ حروب الفتح أن يستغلوا عامل السرعة ، وأن يحرصوا على تبليغ كل إنذار بالخطر وبطلبات النجدة ، ولم يجدوا أسرع من سرعة الضوء وذلك باتخاذ أبراج عالية توقد فوقها النيران فى حالة الإنذار وطلب النجدة . وهذا هو مايقرره البلاذرى نقلا عمن شاهدوا الفتوح الأولى وعمن عاصروا التنظيم الأول للدفاع عن السواحل ، ثم ظلت هذه الطريقة مستعملة إلى القرن الرابع الهجرى على الأقل بحسب رواية المقدسى .

حصنان بين الرملة وكل رباط ساحلى :

أما المسافة الواقعة بين الرملة ورباطاتها الساحلية الخمس فكانت مقسمة إلى أثلاث عند كل منها برج ، وقد أشرنا إليها فى خريطتنا دون ذكر أسمائها لكيلا تطغى على الفكرة الأساسية .

أبراج المراقبـــة :

لابد لكل رباط من برج ، ويكون البرج عادة متصلا بحصن من الحصون ، ولانعتقد أن المآذن اتخذت لتحل محل الأبراج ، أو أنها استعملت للدفاع ، فاذا كانت الرباطات تمتد كما رأينا على مسافة ٥٠ كيلو متراً تقريباً ، فان متوسط المسافة

بين كل برج وآخر هى عشرة كيلو مترات . وقد يحتاج الأمر بحسب التضاريس المـانعة من الرؤية إلى إنشاء أبراج أخرى بين الرباطات ، ليسهل الاتصال بينها عند الضرورة .

التشكيل الاستراتيجى الدائرى :

يدل النظر إلى الخريطة على كيفية توزيع الأبراج على الساحل الفلسطينى فى هذه المنطقة ، كما يدل على أنصاف الأقطار الواصلة بين كل رباط وبين مركز الرملة ، ونقترح أن نسمى مثل هذا النظام بالنظام الاستراتيجى الدائرى .

ويدخل ضمن هذا النظام الطريق الساحلى الواصل بين الرباطات الساحلية المختلفة ، لـكى يستطيع بعضها أن يتعاون مع البعض الآخر .

هل كان مثل هذا النوع من الدفاع عاما فى الشام ؟

رأينا أننا أمام وحدة دفاعية قد يكون من الممكن أن تتـكرر على طول السواحل الشامية من غزة إلى انطاكية بحسب حدود الشام القديمة .

نحن نميل إلى تعميم القضية لأنه لايوجد قط مايبرر اعتبار نظام الرملة الدائرى برباطتها التابعة لها نظاماً استثنائياً ولـكن التعميم دون وجود نص واضح صريح إنما يرتفع إلى مستوى الترجيح فقط دون اليقين . وهنا مكان لمزيد من الدراسة .

وإذا رجعنا إلى أول نظام وضع للدفاع الساحلى وجدنا أن النظام الذى كان متبعاً أيام الراشدين جعل الساحل ولاية واحـــدة مستطيلة ممدودة من غزة إلى أنطاكية ، ويقوم بحمايتها والى من الولاة يعرف باسم « صاحب البحر » وهو الذى يقع على عاتقه كل الدفاع الساحلى ، ثم عدلوا عن هذا النظام الأول ، وأنشأوا نظاماً ثانياً هو تقسيم السواحل بحسب أجناد الشام ، وصارت السواحل مقسمة يتبع كل قسم منها الجند الذى يقع بازائه .

أما الأجناد بحسب التقسيم الحربى فى هذا العهد الأول فهى :

١ — فلسطين . ٢ — الأردن . ٣ — دمشق .
٤ — حمص . ٥ — قنسرين . ٦ — الجزيرة .

وصار الساحل عبارة عن وحدات استراتيجية متكررة ، والراجح عندنا أن نظام الدفاع الدائرى نظام تكرر بالنسبة لكل الأجناد الساحلية .

أين يقع جند الأردن :

ولنلاحظ أن جند الأردن لايذكرنا بالمملكة الأردنية الحالية فى شىء ، بل كان عبارة عن المنطقة الواقعة شمالى فلسطين من الصحراء إلى البحر . ولايوجد أدنى رابط بين التشكيلات السياسية الحاصرة المفروضة على المنطقة وبين التشكيلات الحربية السياسية القديمة .

المرابطون فى الثغور البحرية :

نقرر قبل كل شىء ، أن التجنيد الإجبارى أمر لم يطبق فى النظم الإسلامية القديمة ، بل كانت القبائل تدخل نفسها فى سلك الجندية وتكتسب بهذا الدخول منزلة إجتماعية مرموقة رخية الرزق ، ويكون رزقها بقدر عدد المقاتلين من أفرادها ، بحسب ماهو مقرر فى ديوان الجند المسمى أيضاً بديوان العطاء . ثم تتوارث القبائل إبناً عن أب سلك الفروسية . وأشهر مثل على توارث الفروسية هو مثل أسرة ابن خلدون الحضرمية ، فإنها توارثت الخدمة العسكرية من أيام معاوية بن أبى سفيان (فى القرن الأول الهجرى) إلى أيام جد ابن خلدون (أول القرن الثامن الهجرى) وهذه الطبقة العسكرية هى الجند الرسمى للدولة . أما من عداهم فإنه يستطيع أن يتطوع فى الجيش أداء لحق الجهاد ، وكان عدد هؤلاء المتطوعين يعد بالآلاف فى كل عام فى كل جبهة .

وكان عبء الرباط يقع أولا على الجند الرسمى . أما دور المتطوعين ، فإنه دور ثانوى وإن كانوا يساهمون فى الدفاع والهجوم مساهمة فعالة .

كان العرف الجارى منذ القرن الأول الهجرى ، يقضى بأن تخصص الدولة لكل رباط عدداً معيناً من المرابطين بقدر احتياجه . ومدى الاحتياج هو قدرة العدد المخصص للرباط على حماية الموقع بأنفسهم إلى أن يأتى الدد . ومثل هذه الرابطة هى الرابطة الدائمة المقيمة بالرباط صيفاً وشتاء .

أما فى الصيف فإن الدولة تحرص على أن تضيف إلى الرابطة الدائمة المذكورة آنفاً جنداً رسمياً من « جند الديوان » بأصنافهم المختلفة من : طوالع ، وبعوث ،

وندبة ، تدعيما لقوة الرباطات فى هذا الفصل الوحيد الصالح للملاحة والأعمال البحرية .

أما فى فصل الشتاء ، فانه فصل لاتقوم فيه الحروب إلا نادراً ، فلا تحتاج الرباطات فيه إلى تدعيم .

وثمة مدد آخر يدعم الدفاع الساحلى ، وهو مدد مؤلف من المتطوعين الذين يؤدون حق الجهاد تعبداً ، ومثال ذلك المقدسى نفسه ، فانه لم يكن جندياً بل كان تاجراً عالماً رحالة ، ولكنه شارك فى الجهاد أحياناً قاصدا التعبد ، فشارك فى الرباط وغزا مع الغزاة . ولم نزل إلى وقت قريب ندعو فى خطب الجمعة القديمة للغزاة الذين يحمون الحدود ويدافعون عن الدول الإسلامية . على أساس أن الغزو هو عملية دفاعية سواء كانت رباطاً أم هجوما ، لاعلى أساس النهب والتخريب .

الخـــلاصة :

١ — تبين هذه الدراسة تشكيل وحدة من وحدات الدفاع قائمة بوظيفة معينة بحسب وصف الجغرافى العربى المقدسى ، وقد اخترنا هذا الجغرافى بالذات لأنه كتب كتابه قبيل الحروب الصليبية ، وصور التنظيمات الحربية قبل دخول الصليبيين إلى الشام (بالمدلول القديم) .

٢ — يرجع أصل هذا النظام إلى القرن الأول ، وقد وصفته أنا ، فى كتاب وبحث ، فى هذا القرن معتمداً على البلاذرى خاصة ، ثم لم أحدد مدى استمراره إلى أن وقعت على المقدسى فعرفت أن النظام الدفاعى الساحلى المبتدع فى القرن الأول ظل باقياً ثلاثة قرون ونصف قرن إلى العهد الفاطمى وإلى غزو الفرنج الصليبيين للشام .

٣ — يدل بقاء هـذا النظام على أن فـكرة الجهاد ظلت قائمة ، وظلت تتدعم على مر العصور ، وكذلك تحـكمت فـكرة الجهاد فى اختيار الرملة عاصمة ، وفى إنشاء الطرق المؤدية إليها أوالخارجة منها . ثم تحـكمت أيضاً فى تركيز العمران فى كل قواعد الرباط لتـكون هذه القواعد أقوى على القيام بدورها الدفاعى .

٤ — وفى ضوء هذه الدراسة ، نفهم أهمية انسحاب القائد الإنجليزى «جلوب» قائد الجيوش الأردنية من اللد والرملة فى حرب ١٩٤٨ ، مع أن هذه الدراسة تبين أن الرملة هى مفصلة لمروحة مكونة من سواحل فلسطين .

ولم يكن « جلوب » يجهل قيمة الرملة .

ومن واجبنا اليوم أن نقدر قيمة هذه المدينة ، وأن نرفع قيمتها الاستراتيجية على قيمة القدس من الناحية الحربية .

محمد عبد الهادي شعيره

خريطة كاريكاتورية لنظام الاستراتيجية الدائرية حول الرملة :

